الضحايا الصامتون

الأطفال ضحايا أبرياء وأدوات حرب متعمدة

أ. م. د. شيماء الحديدي
أستاذ المناهج وتعليم العلوم المساعد
كلية التربية - جامعة الإسكندرية - مصر

في مسرح الحرب؛ وسط الفوضى، وضجيج الصراع، توجد مجموعة من المصابين الصامتين الذين غالبًا ما تُغفل أصواتهم.. إنهم الأطفال، فهم من الفئات الأشد ضعفًا، والأكثر تأثرًا بهذه الاضطرابات العنيفة؛ فحينما تعصف الحروب، والصراعات المسلحة بالمناظر الطبيعية، والمجتمعات، فإن تلك الأرواح البريئة - التي تقع في مرمى النيران - هي من تتحمل وطأة المعاناة، والدمار، بدءًا من النزوح والصدمات، وانتهاءً بالتجنيد القسري لهم.

تأثير متعدد الأوجه

تأثير الحروب والنزاعات المسلحة في الأطفال عميق، وطويل الأمد؛ مخلفًا تجارب مروعة، تترك ندوباً على المجتمعات تمتد إلى ما هو أبعد من ساحة المعركة. إنهم لا يعانون لأنهم ضحايا غير مقصودين فحسب، بل لأنهم أهداف متعمدة، أو أدوات للحرب في كثير من الأحيان. وتأثير الحرب في الأطفال متعدد الأوجه، وفهم هذه التأثيرات أمر بالغ الأهمية للجهود العالمية الرامية إلى حماية أصغر أفراد المجتمع، وضمان مستقبل أكثر أمانًا للجميع؛ ويمكن إيجاز تلك التأثيرات فيما يأتي:

- **أزمات النزوح والتهجير القسري**

تؤدي النزاعات المسلحة إلى نزوح جماعي؛ ما يجبر الأُسر على الفرار من منازلها هربًا من العنف، والاضطهاد؛ بحثاً عن الأمان والاستقرار. ويواجه الأطفال في مخيمات اللاجئين، أو المشردين في جميع أنحاء العالم مخاطر إضافية؛ متمثلة في الحرمان الشديد، وسوء التغذية، والجوع، والمرض، والاستغلال.

وقد أشارت المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين إلى أن الأطفال يمثلون ما يقرب من نصف النازحين قسراً في العالم؛ ما يؤدي إلى تفاقم نقاط الضعف لديهم، ويجعل من الصعب الوصول إلى الضروريات الأساسية مثل الغذاء، والرعاية الصحية، والتعليم.

- **الأذى الجسدي والإصابات**

كثيراً ما يصبح الأطفال ضحايا مباشرين للعنف في مناطق الحرب، وأهدافًا للهجمات العشوائية المتضمنة للتفجيرات، وإطلاق النار، والألغام الأرضية؛ ما يؤدي إلى القتل، وإصابات جسدية مصحوبة بإعاقات طويلة الأمد، ويجعل البقاء على قيد الحياة - في حد ذاته - محنة قاسية. منظمة اليونيسف أشارت في أحدث تقاريرها إلى أن عدد المُشردين حول العالم في عام 2023 وحده بلغ 6 ملايين شخص نتيجة النزاعات المُسلحة في السودان، ومن جانب آخر تم قتل أكثر من 6 آلاف طفل في غزة في أقل من ثلاثة أشهر.

- **تدمير البنى التحتية**

الاستهداف المتعمد للمدارس، والمستشفيات، وغيرها من البنى التحتية المدنية خلال الهجمات العشوائية الشرسة لا يحرم الأطفال من الخدمات الأساسية فحسب، بل ينتهك - أيضًا - حقوقهم الأساسية في السلامة والحماية. وعلاوةً على ذلك، فإن الفتيات معرضات - بشكل خاص - للعنف، والاستغلال الجنسي، ويواجهن خطرًا متزايدًا للاغتصاب، والزواج القسري، والاتجار في أوقات النزاعات المُسلحة.

- **استغلال الأطفال وتجنيدهم القسري**

أحد أفظع الانتهاكات لحقوق الأطفال في الحرب هو تجنيدهم قسريًا؛ حيث تستغل الجماعات المسلحة الأطفال وتتخذ منهم مقاتلين أو جواسيس، من خلال إخضاعهم لأنظمة تدريب وحشية؛ ما يحول حياتهم إلى كابوس يتجردون فيه من حريتهم وبراءتهم، وطفولتهم. والتجنيد القسري للأطفال لا يعرضهم للأذى المباشر فحسب؛ بل يلقنهم - أيضًا - ثقافات العنف، التي قد يكون من الصعب التخلي عنها لاحقًا.

- **تعطيل التعليم**

تُعطل الحرب أنظمة التعليم؛ ما يؤدي إلى إغلاق المدارس، وتشريد المعلمين والطلاب، وفي هذا السياق تشير تقارير الأمم المتحدة إلى وجود طفل من كل أربعة أطفال - تتراوح أعمارهم من 6 إلى 15 عاماً (أي نحو 63 مليون طفل) - خارج المدرسة في البلدان المتضررة من الحروب والنزاعات المُسلحة؛ ما يؤدي إلى فقدان الفرص التعليمية، وهذا بدوره يؤثر في استمرار الفقر، والعنف؛ ما يزيد من صعوبة تعافي المناطق التي مزقتها الحروب.

- **تأثيرات نفسية واجتماعية**

لا تقتصر عواقب تعرض الأطفال للنزاعات المسلحة على فترة الحرب، بل غالبًا ما تستمر الندوب الجسدية، والنفسية التي يحملونها لفترة طويلة بعد صمت الأسلحة؛ حيث يعاني العديد من الأطفال من اضطراب ما بعد الصدمة PTSD، والاكتئاب، والقلق؛ مما يعيق

قدرتهم على عيش حياة طبيعية وصحية. وكثيراً ما تكون الندوب العقلية مخفية ومخيفة في آنٍ واحد؛ حيث تعيق نمو الطفل، واندماجه في المجتمع بعد فترة طويلة من انتهاء النزاع.

أطر قانونية

اعترف المجتمع الدولي بمحنة الأطفال في النزاعات المسلحة، وأنشأ مختلف الأطر القانونية والمنظمات؛ لحمايتهم؛ ومنها:

- اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الطفل: التي تعترف في المادة رقم 28 منها بحق الطفل في التعليم. بينما تدعو المادة 38 إلى حماية الطفل في النزاعات المُسلحة؛ فضلًا عن بروتوكولها الاختياري بشأن اشتراك الأطفال في النزاعات المسلحة، وإنفاذها لمحاسبة الجناة وحماية الأطفال من الاستغلال والإيذاء.
- اتفاقيات جنيف الرابعة في عام 1949 وبروتوكولاتها الإضافية: وتنص على حماية المدنيين، يمَنْ في ذلك الأطفال، وتضمن استمرار التعليم في أثناء النزاعات المُسلحة.
- قرارات مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة - ومنها قرارا 1998 و2011 - وتتناول الهجمات على المدارس والمستشفيات، وتدعو إلى اتخاذ تدابير أقوى لحماية المرافق التعليمية في أثناء النزاعات المُسلحة.
- المنظمات الإنسانية، مثل يونيسف ومنظمة إنقاذ الطفولة، وما تلعبه من أدوار حاسمة في تقديم المساعدات، والدفاع عن حقوق الأطفال. كما تعمل على تسليط الضوء على الاحتياجات التعليمية للأطفال في مناطق النزاع، وحث الحكومات والجماعات المسلحة على احترام القوانين الدولية.

> معالجة محنة الأطفال في الصراعات المسلحة تتطلب اتباع نهج متعدد الأوجه؛ يشمل الوقاية والحماية وإعادة التأهيل

جهود دولية

بذل المجتمع الدولي، والحكومات، والمنظمات المختلفة جهودًا متعددة في محاولة للتصدي لمعاناة الأطفال، ومحنة تعليمهم خلال الحروب والنزاعات المُسلحة، ويمكن توضيح تلك الجهود فيما يأتي:

- **إعلان المدارس الآمنة:** وهي التزام سياسي حكومي دولي، يوفر للدول الفرصة للتعبير عن دعمها؛ لحماية، واستمرار التعليم في النزاعات المسلحة في مخيمات اللاجئين، وأماكن النزوح.
- **دمج التعليم في خطط الاستجابة الإنسانية باعتبارها أهم أولويات المساعدات الإنسانية:** ويتضمن ذلك تخصيص الأموال للأغراض التعليمية في ميزانيات الاستجابة لحالات الطوارئ.
- **استخدام التكنولوجيا وأدوات التعلم المبتكرة:** تتضمن منصات تعلم إلكتروني يمكن الوصول إليها عبر الهواتف المحمولة، أو الأجهزة اللوحية، أو أجهزة الكمبيوتر. ويمكن لهذه المنصات توفير دروس تفاعلية، ومواد تعليمية مصممة خصيصًا لتلبية احتياجات الأطفال المتأثرين بالصراع.
- **تفعيل الفصول الدراسية التي تعمل بالطاقة الشمسية في الأماكن النائية، أو مناطق النزوح:** ويضمن ذلك أن يتمكن الأطفال من مواصلة التعلم حتى في حالة عدم وجود كهرباء موثوق بها.

> التعليم أداة حاسمة لإعادة بناء المجتمعات بعد انتهاء الصراع وخطوة نحو السلام والتنمية المستدامين

- **توفير مصادر التعلم غير المتصلة بالإنترنت:** من خلال محركات أقراص USB، والأجهزة اللوحية المحملة مسبقًا، والمواد المطبوعة للمناطق التي لا يتوافر بها الوصول إلى الإنترنت.
- **توفير برامج تدريب مكثف للمعلمين المحليين:** للتعامل مع أحجام الفصول الكبيرة، والتدريس متعدد الصفوف، والممارسات المستنيرة للصدمات، إضافة إلى تقديم الدعم النفسي والاجتماعي للمعلمين أنفسهم؛ ما يحسن قدرتهم على التدريس بفعالية، وتقديم هذا الدعم النفسي والاجتماعي للطلاب أيضًا من خلال خدمات الاستشارة، ومجموعات دعم الأقران، والأنشطة التي تعزز الصحة العقلية.
- **تعزيز القدرات التعليمية المحلية من خلال إنشاء مدارس مجتمعية:** ويديرها متطوعون محليون، يمكن أن يسد الفجوة عندما تنهار أنظمة التعليم الرسمي، ويمكن دعم هذه المدارس بالتدريب، والمواد، والتمويل من المنظمات الدولية.
- **تصميم برامج التعلم السريع Accelerated (ALPs) learning programs:** التي تكثف عدة سنوات من المناهج الدراسية في إطار زمني أقصر؛ لمساعدة الأطفال على اللحاق بالتعليم المفقود، ويمكن أن تكون هذه البرامج فعالة بشكل خاص للأطفال الأكبر سنًا، الذين ظلوا خارج المدرسة لفترات طويلة.
- **خيارات التعليم المرنة:** وتتضمن تقديم ساعات، ومواقع دراسية مرنة؛ لاستيعاب حياة الأطفال غير المستقرة، والتي لا يمكن التنبؤ بها في كثير من الأحيان في مناطق النزاع؛ حيث يمكن للفصول المسائية، ومدارس نهاية الأسبوع، والمدارس المتنقلة أن تضمن حصول المزيد من الأطفال على التعليم.
- **إطلاق حملات المناصرة العالمية:** لرفع مستوى الوعي، ودفع العمل الدولي نحو حماية التعليم في مناطق النزاع. ويمكن لهذه الحملات تعبئة الموارد، والإرادة السياسية، والمطالبة بتعزيز الآليات الدولية؛ لمحاسبة المخالفين بموجب القانون الدولي.
- **المنح الدراسية، والحوافز الاقتصادية:** وتتضمن تنفيذ برامج التحويلات النقدية المشروطة التي تقدم حوافز مالية للأسر؛ لإبقاء أطفالها في المدارس؛ ما يخفف الضغوط الاقتصادية التي غالباً ما تجبر الأطفال على العمل، أو الزواج المبكر. فضلًا عن تقديم منح دراسية، ورواتب للأطفال في مناطق النزاع؛ لتغطية تكاليف اللوازم المدرسية، والزي المدرسي، والنقل.

استراتيجيات الآباء

في خضم النزاعات المُسلحة، يواجه الآباء تحديات استثنائية لضمان استمرار تعليم أبنائهم؛ ومن

> استراتيجيات الآباء لضمان استمرار تعليم أبنائهم في أوقات الحرب

الاستراتيجيات التي يمكن أن يتبعها الآباء لتوفير بعض أشكال التعلم، والإحساس بالاستقرار لأطفالهم:

- محاولة إنشاء روتين يومي ثابت لممارسة بعض الأنشطة التعليمية اليومية؛ ما يسهم في تعزيز الشعور بالاستقرار، والاستمرارية للأطفال.
- مرونة الجدول المُتبع؛ لتلبية الطبيعة المتغيرة، وغير المتوقعة للبيئات المتأثرة بالنزاعات المُسلحة؛ ما يسهم في تنمية روح المثابرة للأطفال.
- دمج التعلم غير الرسمي في الأنشطة اليومية، مثل السرد القصصي لتنمية المهارات اللغوية، والقياسات الرياضية في مخيمات النازحين.
- مشاركة القصص الثقافية، والتاريخية؛ لمساعدة الأطفال على البقاء متصلين بتراثهم، وهويتهم.
- متابعة البرامج التعليمية الإذاعية التي تُبث عبر الراديو، والتي غالبًا ما تكون مصممة للمناطق ذات الموارد المحدودة.
- ممارسة أنشطة تخفيف التوتر، مثل الرسم، واللعب، أو التمارين البسيطة.
- تقديم الدعم العاطفي؛ ما يسهم في شعورهم بالأمان، وتخفيف توترهم، وقلقهم.

كسر دوائر العنف

ضمان سلامة ورفاهية ومستقبل الأطفال في مناطق النزاعات المُسلحة ليس واجبًا أخلاقيًا فحسب؛ بل إنه ضروري أيضاً لكسر دوائر العنف، وبناء عالم أكثر سلاماً. ويجب على المجتمع الدولي بذل الجهود لمنع نشوب الصراعات في المقام الأول من خلال الدبلوماسية، وحل الصراعات، وتعزيز حقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية؛ فضلًا عن مواصلة حماية الفئات الأكثر ضعفًا، والوفاء بالوعد بمستقبل أفضل لجميع الأطفال. ومسؤوليتنا الجماعية – بوصفنا مواطنين عالميين - تفرض علينا أن نستمع إلى أصواتهم، ونحمي حقوقهم، ونضمن حصولهم على الفرصة للازدهار في عالمٍ خالٍ من أهوال الحرب، والعنف. فلتحيَ براءة الأطفال، فلتحيَ الكرامة الإنسانية.